النظرية البيولوجية في علم الإجرام (2)

ب. النظرية الإيطالية الحديثة " البيولوجية الاجتماعية":

يتزعم هذه المدرسة العالم" أنر يكو فيري "E. Ferri "1856-1929" أحد تلامذة "لومبروزو" Lombrose وأستاذ القانون الجنائي، الذي وضع أُسس علم الاجتماع الجنائي، وهو يمثل الاتجاه البيولوجي الاجتماعي في المدرسة الإيطالية القديمة بالرغم من تأييده للعالم" لومبروزو" Lombrose. وهناك من الباحثين من يرى بأن" فيري " هو المؤسس الحقيقي لعلم الجريمة الحديث. وأياً كان الأمر فإن لـ" أنر يكو فيري" E. Ferri الفضل في تأسيس ما يعرف حالياً بـ" علم الاجتماع الجنائي" Criminal Sociology.

وقد وضع" فيري " أُسساً للجريمة والسلوك الإجرامي بمعادلة تشبه المعادلة الكيميائية أطلق عليها قانون التشبع الإجرامي أو الكثافة السكانية، وأرجعها إلى عوامل ثلاثة هي:-"4"

1.عوامل طبيعية: مثل الموقع لجغرافي والمناخ والأحول الجوية.. الخ.

2.عوامل فردية: مثل السن والجنس والخصائص العضوية والعوامل الموروثة.

3. عوامل اجتماعية: مثل كثافة السكان والعادات والتقاليد والتنظيم السياسي والظروف الاقتصادية وغيرها.

وقد التزم " فيري " E. Ferri في بحوثه ودراساته بالمنهج التجريبي الذي سلكه"لومبروزو" Lombros واختار في عام "1881" عينّة تتكون من "300" مجنون و"700" مجرم من السجناء و"711" جندياً كمجموعة ضابطة، وقد راعى في اختيارهم أن يكونوا من الأماكن ذاتها التي ينتمي إليها المجرمون، ومن مستواهم الاجتماعي نفسه، وقسم بحثه إلى قسمين الأول: يشتمل على النواحي البيولوجية، ويضم الثاني: الجوانب النفسية، ثم قام بتصنيف المجرمين إلى الطوائف التالية:

1. المجرم بالولادة أو بالغريزة Born Criminal: وهو المجرم الذي لا يستطيع مقاومة غريزته وما ينتج عن ذلك من دوافع إجرامية ورثها منذ الولادة.

2. المجرم المجنونInsane Criminal : وهو المجرم الذي يرتكب الأفعال الإجرامية المخالفة لقواعد المجتمع وقوانينه نتيجة لتخلفه أو لمرضه العقلي.

3. المجرم بالصدفة Criminal Occasional : وهو المجرم الذي يرتكب فعله الإجرامي نتيجة لظروف عائلية وبيئية- اجتماعية وثقافية- أكثر من كونه ناتجاً عن عوامل شخصية أو نفسية متوارثة.

4. المجرم العاطفي Passionate Criminal: وهو المجرم الذي يرتكب جرائمه نتيجة لعدم تمكنه من السيطرة على نوازعه وانفعالاته.

5. المجرم المعتاد Habitual Criminal: وهو المجرم الذي تكونت لديه العادة على ارتكاب الأفعال المخالفة للقانون والعادات والتقاليد الاجتماعية."5"وتبين له أن هناك 10% من السجناء و37% من الجنود كانوا بدون التشويه الخلقي الذي ذكره لومبروزو وتؤكد مثل هذه النتيجة أن التشوهات وإن وجدت بكثرة في المجرمين إلاّ أن حالات الاستثناء كثيرة ومتعددة. ولقد حاول أن يعلل ذلك لومبروزو بأننا إذا وجدنا هذه التشوهات في الأمناء من الرجال والسيدات، فإننا نكون أمام طبائع إجرامية لم ترتكب بعد الفعل الظاهري لأن الظروف التي عاشوا في كنفها أدت إلى حمايتهم من إغراء الجريمة. ولكن هذا يعني أن لومبروزو يعترف صراحة أن البيئة تلعب دوراً هاماً في حدوث الجريمة وأن هذا في نفس الوقت يلقي ظلالاً من الشك على نظريته."6"

وقد توصل فيري من بحوثه إلى أن المسؤولية الجنائية لا تقوم على أساس خلقي وإنما على أساس من التضامن الاجتماعي الذي يفرض على المجتمع مسؤولية الدفاع عن نفسه من خلال تدابير وقائية أكثر منها عقابية.

وأخيراً يمكن إجمال أفكار" فيري " E. Ferri بما يأتي:

1. الجريمة هي نتاج عوامل متعددة " طبيعية وفردية واجتماعية."

2. إصلاح المجرم ليس كافياً، بل يجب بذل الجهود لإصلاح وسطه الاجتماعي.

3. التأكيد على أهمية السياسة الجنائية للوقاية من الجريمة.

نظرية لومبروزو في الميزان:

لاشك أن النظرية الإيطالية بشقيها القديم والحديث كان لها الدور الأساس في تفسير الظاهرة الإجرامية تفسيراً علمياً قائماً على الحقائق الواقعية بعيداً عن الأفكار الميتافيزيقية والأخلاقية والدينية، بسبب اعتمادها المنهج التجريبي والملاحظة في البحث والدراسة. ومع ذلك فقد تعرضت هذه النظرية لجملة من الانتقادات أهمها:-

1 . بطلان الأساس التجريبي الذي بني عليه" لومبروزو " نظريته الأولى، حيث اقتصرت دراسته على فحص جثث وأجسام المجرمين الأحياء منهم والأموات، ولم يستخدم مجموعة ضابطة من غير المجرمين، كما أن عينة البحث التي استخدمها لم تكن ممثلة تمثيلاً صحيحاً للظاهرة محل الدراسة لا من حيث عدد المجرمين ولا من حيث نوع الجرائم، الأمر الذي أفقدها المنهجية العلمية."11"

2. القول بأن الصفات الوحشية والبدائية التي أكد عليها" لومبروزو" تعوزه الدقة، وفيه نوع من المغالطة، لأن المجتمع البدائي لم يكن جميع أفراده من المجرمين، كما أنه لا يمكن التحقق من أن الإنسان الأول كان يعيش على سفك دماء أخيه، فهذه أفكار غيبية بعيدة عن النهج العلمي الاختباري، من هنا خرجت أساسات هذه النظرية عن المنطق السليم."12"

3. أغفل" لومبروزو " دور العوامل الأخرى لاسيما الاجتماعية أو البيئية في شخصية المجرم وفي الدفع به إلى هاوية الجريمة، وهذا دعا تلميذه" فيري " إلى الاهتمام بدراسة هذا الجانب من العوامل.

4. استخفاف النظرية بالحريات والضمانات الفردية، مع الإخلال بمبدأ الشرعية عندما نادت باتخاذ تدابير استئصاليه قاسية ضد فئات المجرمين لاسيما المجانين والمجرمين بالعادة وغيرهم من المجرمين.

5. قول النظرية بحتمية الجريمة وإنكارها المطلق لحرية الاختيار."14"

6. إهمالها لاعتبارات العدالة وما استتبعه ذلك من إنكار للمسؤولية الجنائية.

7. قولها بوجود نوع ثابت من الجريمة غير مختلف عليه لا في الزمان ولا في المكان، وهي الجريمة الطبيعية القائمة على الجوانب الأخلاقية والقيم الاجتماعية مشككة بالمفهوم القانوني للجريمة على نحو ما ذكره"جاروفا لو " هو قول لا يخلو من التناقض أيضاً.

بحوث العالم تشارلز جورنج

أجرى الطبيب الإنجليزي"جورنج" Charles Goring"1870-1919" بحوثه على"3000" سجيناً كلهم من المجرمين الخطرين وقارنهم بغيرهم من محترمي القانون، وقد استمرت بحوثه وتجاربه حوالي"8 " سنوات، استنتج منها: أن الجريمة ليس علّة مرضية يمكن تشخيصها ووضع دواء لها، وأن المجرمين ليسوا ذوي خصائص وميزات جسمية وعقلية يتميزون بها عن سائر الناس، وأنه لا توجد سمات تميّز المجرم عن غيره وكذلك لا يوجد فرق في مقاييس الجمجمة والعظام بين المجرمين وغيرهم من الأسوياء بعد أن قارن بين سعة جماجم طلاب جامعة أكسفورد وجامعة كمبرج وبين سعة جماجم المجرمين في السجون فلم يجد فرقاً ملحوظاً بين الفئتين، كذلك لم يجد فرقاً في نفس المقاييس بين أساتذة جامعة لندن والمجرمين، والفرق الوحيد الذي لاحظه هو أن المجرمين كانوا أقل في الطول والوزن، ويرجع ذلك إلى مستواهم الاقتصادي المنخفض وفرصهم القليلة في نمو أجسامهم. وقد نفى بشدة وجود العلاقات الفيزيولوجية المميزة التي نادى بها "لومبروزو "Lombros فهدم بذلك حجر الزاوية لنظريته."15"واختتم بحوثه بالعبارة التالية:- " إن النتائج التي توصلنا إليها بعد أبحاث مستمرة وإحصاءات دقيقة تشير إلى انه لا يوجد نموذج لإنسان مجرم يتميز بعلامات أو سمات جسمية، ثم إن هيئة الإنسان الخارجية لا علاقة لها بالسلوك الإجرامي."

ومع ذلك، فقد أشار"جورنج" Charles Goring إلى وجود بعض السمات الجسدية ذات العلاقة بأنواع محددة من الجرائم مثل ارتكاب جرائم السرقة من قبل أشخاص صغار ضعاف البنية تميزهم عن غيرهم ممن يرتكبون جرائم مختلفة، إلا أنه اختلف مع" لومبروزو " في تصنيفه للمجرمين حيث أضاف إلى سمات" لومبروزو" البدنية، سمات أخرى ذات علاقة بالوضع الاجتماعي والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المجرم، ووفقاً لذلك صنّف عينة دراسته التي أجراها على نزلاء السجون في أربع طبقات اجتماعية وسبع حرف مهنية، نلخص بعضاً منها فيما يلي:-"16"

\* يمكن التمييز بين الطالب الجامعي بجامعة إنجليزية وبين زميله بالجامعة الاسكتلندية بناءً على خواص الطالبين ومقاساتهما البدنية أكثر من إمكانية التنبؤ فيما إذا كان أيّ منهما سيصبح مجرماً أم أستاذاً جامعياً.

\* تقل أطوال المجرمين عن الأسوياء في المهنة الواحدة بما يعادل"4" سم.

\* يتولد الميل إلى الجريمة والجناح في منزل الأسرة.

\* الطبقية الاجتماعية والظروف البيئية أو الصدفة تعد ذات أثر بسيط جداً في انحراف الفرد وإجرامه .